

المخيال الشعبى وتكريس الحكم المطلق

على فهمى

مستشار اجتماعى وقانونى - القاهرة

"مصر مجموعة متتابعة من أوراق الرق على بعضها كتابات غير جلية ومطموسة، تليها طبقات عليها كتابات أكثر وضوحاً".

العلامة: "نيو برى"

معالم "سوق الثقافة" فى مصر

ليس فى مصر المعاصرة ملامح ثقافة رصينة واضحة المعالم والأبعاد؛ بل الأمر لا يعدو أنواعا عشوائية من ثقافات وبقايا ثقافات فرعية تتسم فى الغالب بالفوضى والاضطراب والشخمة التى تسود الذهنية العامة لمعظم الناس. ولسنا بصدد البحث فى أصول هذه الظواهر المؤسفة، وبخاصة بعد فترة مرضية نسبيا من سيادة معقولة للملامح فكر علمانى وعقلانى وعلمى منذ الثورة الوطنية فى عام (١٩١٩)، وحتى انقلاب (١٩٥٢)، وذلك على وجه التقريب بالطبع.

ومن أسف، نعيد الإشارة إلى ما سبق أن طرحناه فى عدة منتديات علمية رصينة لما أسميناه -آنذاك- بظاهرة المثقف بالسماع، وحدث هذا منذ نحو ربع قرن؛ ومن حقنا بل ومن واجبنا، أن نشير -الآن وبالإضافة- إلى تراكم ظواهر مرضية أخرى، مثل محاولة النصب والاحتيال من جانب أعداد متنامية من مدعى الثقافة وأرباب المتعلمين، والذين يملأون -بالضجيج- معظم إن لم تكن كافة المنابر العامة، بدون رادع مهنى أو أخلاقى أو إنسانى، فضلا عن الروادع القانونية المفترضة!

ومنذ ستينيات القرن الماضى، فطن بعض المثقفين من النبهاء، إلى إشاعة الاشارات الرصينة والمتكررة، إلى

بدايات ظواهر الانحطاط الثقافى ويزوغ إرهابات "خدم المراحل المنحلة". ولعلنا أن نذكر -تحديدا- بكتابات "لويس عوض" بالأهرام عن ظاهرة الفلح الثقافى! وكتابات "يوسف إدريس" بالأهرام -أيضا- عن "مولد الثقافة فى مصر!". وعلى الرغم من أهمية وعمق هذه الكتابات والدعوات الجادة المخلصة، ضاعت أصدائها بين سندان الطغيان السلطوى من ناحية والتدهور العام ذى الوتائر المتسارعة من ناحية أخرى. وحتى ملأت الساحة الثقافية الآن أسماء لجهوليين ومجهولين إن لم نقل مشبوهين، وكأنها هبطت على الساحة بمظلات شيطانية شريرة، تنفق وتغدق -بسءاء مريب- من اعتمادات مالية مجهولة ومريبة المصادر بيقين.

ونعلم أن فى المجتمعات البشرية -بعامة- ثمة نوعين من الثقافات العامة: "ثقافة عامة"، تسود مجتمعات النخب والصفوات وأخرى تنتمى إلى ميادين "الثقافة الشعبية" أو ثقافة "العوام". وعادة تتجاوز الثقافتان، وعادة تغلب "الثقافة العامة" تدريجيا مع التوسع فى انتشار المؤسسات التعليمية والثقافية الجادة، وتُدرس كظواهر ثقافية شعبية تنتمى إلى الماضى، ويستخدم فى رصدتها ودراستها أدوات منهجية ملائمة وخاصة، وينتمى هذا النوع من الدراسات، إلى بعض ميادين الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية.

ما أشرنا إليه فى الفقرة السابقة مباشرة، هو من أهم ملامح السياق العام فى المجتمعات البشرية المعروفة. أما ما يحدث فى المثال المصرى، فيبدو متشحا بشذوذ رائع وغريب؛ إذ ما تنفك الثقافتان متجاورتين متوازيتين، مع ميل مرضى من جانب "الثقافة العامة" إلى تدهور مستمر ومؤسف؛ مما يسمح -بالضرورة- لتنامى سيادة "الثقافات الشعبية"، على حساب "الثقافة العامة!". وبالطبع فإن هذه الصورة غير المتوقعة، لهى بالغة الدلالة على فشل ذريع لكافة الخطط التنموية والتحديثية، إن لم نقل أنها نتاج لتخريب عمدى موعز به من دوائر استعمارية ذات مصالح فى إحداث هذا الفشل، وبمعاونة فئات محلية تابعة وعميلة وجهولة معا.

وقد يكون من المثير -هنا- الإشارة إلى أن سيادة "الثقافات الشعبية"، هى -فى حد ذاتها- نتاج غير مقصود من المخططين للعولة (والتي تمثل أعتى صور الامبريالية وأكثرها جهلا ولا إنسانية). ذلك أننا نرى على عكس مخططى العولة، أن اللجوء المسرف إلى أنماط ومظاهر الثقافات الشعبية (برغم السلبيات المعروفة)، إنما يوصد الأبواب -بقفوية وبتلقائية وببساطة- أمام كل المحاولات الدؤوبة للعولة بكافة أدواتها للسيادة وللتسلط وبخاصة فى الميادين السوسيوثقافية؛ الأمر الذى ينجم عنه -بيقين- إفشال كافة مخططات العولة والتي تمت بعيدا عن الواقع المعنى وعن طريق خبراء جهوليين محملين بالغرور، أجنب ومحليين على حد سواء (ولنا فى المثال الأفغانى والعراقى، آلاف الدلائل المتبصرة).

وفى يقيننا العلمى، أن مخططات العولة وسياساتها (الثقافية منها بخاصة)، إنما رسمت بالاعتماد على تقارير استخباراتية تتسم بالخفة وبعدم الدقة وبالتعالى على الواقع محل الدراسة المبتغاة، وبالاعتماد على بعض الأكاديميين المحليين العملاء والمرتزقة، وهؤلاء لا يهتمهم سوى الحصول على المردودات المالية بسرعة ويقدر كبير من التسطيط؛ ولعل هذا أن يكون من حسن حظ الأمة فى قابل الأيام.

شواهد عيانية على طغيان الثقافات الشعبية :

خلال الشهر الفائت مباشرة (أغسطس ٢٠٠٥)، أقيمت احتفاليات كبرى ببعض محلات محافظة "المنيا"، بمناسبة مولد السيدة العذراء، فى كنيسة الكبرى هناك، وهى من الأماكن التى تضمنتها رحلة "العائلة المقدسة" من فلسطين إلى مصر، أثناء طفولة السيد المسيح. ووفقا لزيارات ميدانية سابقة لنا لاحتفاليات مماثلة فى أعوام ماضية، وأيضا وفقا للعديد من تحقيقات صحفية مصورة، وتحقيقات تلفازية من بعض قنوات التلفزيون المصرى والقنوات الفضائية الخاصة المصرية والعربية العاملة فى مصر؛ وفقا -لما سلف كله-، يتضح لنا أن مجموع عدد الزوار يدور فى حدود المليونين، نصفهم من الأقباط ونصفهم الآخر من

المسلمين الذين يكونون "للعائلة المقدسة" حبا واحتراما يكاد يصل إلى حد التقديس.

هذه الاحتفاليات المعاصرة بكل ما فيها من تفاصيل كثيرة، وخط محبب طريف بين الدينى والديوى والطقسى والفنى الشعبى، تذكرنا بالتفاصيل الكثيرة المثيرة، التى أوردها "هيرودوت" فى تاريخه الأشهر، حول احتفاليات الموالد العديدة لبعض الآلهة المحليين بدلتا مصر على عهده، وكيف كانت تستمر الاحتفالية الواحدة نحو أسبوعين، يشهدها عشرات الآلاف على ضفاف النيل والمجارى المائية فى الغالب، طاعمين شاربين متعبدين ومحتفلين فى صخب وقصف أثارت تأملات المؤرخ الأغريقى فى ذلك الزمان البعيد. ومنذ نحو عقدين قمنا بدراسات ميدانية حول بعض احتفاليات المولد فى مصر المعاصرة لأولياء مسلمين ولقديسين أقباط، نشرنا أهم نتائجها فى كتابنا: (دين الحرافيش فى مصر المحروسة) (١) دار ميريت، القاهرة ١٩٩٩).

وفى غضون الأسبوع الأخير من شهر سبتمبر الماضى احتفلت جموع غفيرة من مواطنى محافظة "قنا" بصعيد مصر، باحتفالتين كبيرتين، أولاهما بمولد الولى الشهير مولانا: "عبدالرحيم القنائى" بمدينة "قنا"، وللناس فيه وفى بركاته وأسرار ولايته اعتقاد عظيم. وفى مدينة "الأقصر" التليدة وخلال الفترة ذاتها، احتفلت جماهير غفيرة من الأحباب والمريدين بمولد مولانا: "أبو الحجاج الأقصرى": ونلاحظ أن مسجد "الأقصرى" مقام على ركام واضح من آثار تنتمى إلى العصور الفرعونية. وبلغت النظر العلامة "شمس الدين الحجاجى" أستاذ الأدب الشعبى بجامعة القاهرة، وهو من رموز الأسرة الحجاجية صاحبة الاحتفالية الشهيرة، إلى أن مواكب المريدين وهم عشرات من الآلاف يحملون مركبا فارغا بالطبع، وأن هذه الظاهرة ترجع إلى تاريخ متجذر، حيث كان يعتقد الناس فى قدسية وبركة مركب "الإله أمون"، العابرة من دار الفناء إلى دار الخلود الأبدى.

وإذ يكون ما أوردها فى الفترتين السالفتين مباشرة، ألم تر كيف أن الوشائج بين التاريخى والآنى، فى تجلياتها الراهنة، تبدو كأوضح وكأروع ما يكون؟

"الماثور الشعبى" فى مصر؛ فذلك فى المنهج والدلالات :

يكاد يتفق الاجماع الأكاديمى فى ميادين الماثور الشعبى، على أن بعض الماثورات تعتمد -فى الأساس- على القول ونظائره، ومن ثم فهى ماثورات قولية شفاهية؛ كما يغلب الطابع الفنى والتقنى على بعض أجناس الماثورات، ومن ثم فهى أقرب إلى الفن الشعبى التشكيلى؛ كما أن بعض الماثورات تنسم بالموسيقى والغناء.

وقد ألحنا فى فقرة سابقة إلى ميل السياق العام إلى توار يصيب الماثور الشعبى تدريجيا ووفقا لظروف محددة لعل أهمها النظم التعليمية والثقافية والإعلامية وتطورها وتحديثها. ومن ثم تأخذ الدراسات المنهجية الفولكلورية مناهج ذات طابع انثروبولوجى، وتتبنى أدوات منهجية فى جمع المادة وتفسيرها مستمدة من هذا الميدان الشهير. بيد أن الوضع فى المثال المصرى، لهو على نقيض واضح من مسارات السياق العام، ومن ثم فإن الماثور الشعبى المصرى فى معظم تجلياته ما يزال فى مرحلة الصبا والفتوة فهو ماثور حى ومتنفس. ومن ثم فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن المنهجيات والأدوات المنهجية السوسيولوجية السائدة، هى الأجدر بالتبنى عند جمع المادة ميدانيا، وأيضا عند التصدى للتفسير العلمى. (شاركنا بأوراق علمية فى عدد من الندوات العلمية حول هذا الموضوع تحديدا خلال العقدين الفائتين). وليس ما سلف تقديمه فحسب، بل إننا نعتقد أن الدراسة السوسيولوجية الميدانية لبعض أجناس الماثور الشعبى الراهن، يمكن أن تعود بفائدة علمية كبرى فى تفسير وفهم الظواهر السوسيوقافية الراهنة، مع مراعاة العديد من الاحترازاات المنهجية بالضرورة. كما تجدر

(١) نقصد تحديدا "بمصر المحروسة" أنها العاصمة المصرية (القاهرة / مصر المحروسة)، أى القاهرة مضافا إليها حى مصر القديمة أو العتيقة، وهذا هو الإسم الرسمى للقاهرة حتى عام ١٩٢٠.

النشر العلمى والتوثيق فى هذه المجالات. بيد أن "السيرة الشعبية"، ما تزال تحتل الصدارة وقصب السبق دائما وباطراد ملحوظ.

ولقد لاحظ - بحق - الباحثون والاكاديميون (من العرب والأوروبيين)، أن السير الشعبية العربية (بما فيها الهلالية الأكثر شيوعا)، إنما تغطى أحداثا حقيقية أو متوهمة، وقعت فى أقاليم عربية دون غيرها، مثل شبه الجزيرة وبخاصة اليمن، وبغداد ودمشق إبان عهود الإزدهار، وحتى بعض أقاليم "قارس". كما أن "مصر" وإن أوردتها بعض السير وبخاصة "الهلالية"، قد وردت كمعبر لحركات أبطال السيرة بدون أن تكون (أى مصر)، مراكز قارة لأحداث السيرة.

بيد أن الاستثناء الأوضح فى هذا السياق، تؤكده السيرة الشعبية المصرية الصميمة والوحيدة الا وهى "السيرة الظاهرية" أو سيرة "الظاهر بيبرس"، والتي تدور معظم أحداثها فى مصر، وبخاصة "بالقاهرة مصر المحروسة". كما أن أبطالها الرئيسيين هم من المصريين سواء أكانوا من بين النخب والصفوات الحاكمة، أو من زعماء العوام من شعب القاهرة. وثمة روايات متواترة تؤكد أن "السيرة الظاهرية"، كانت تروى فى أمسيات عديدة بكثرة ملحوظة فى عدد كبير من مقاهى القاهرة وبخاصة بالأحياء الشعبية العامرة، وذلك حتى ما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية (وأواخر أربعينيات القرن العشرين). وكان لهذه السيرة المصرية الصميمة رواياتها العديدين (شعراء)، يغيرون فى أحيان كثيرة فى العديد من النصوص وفى السياقات، وتفاصيل المواقف بحسب رغبة المتلقين من رواد المقهى الذى يروى فيه الشاعر "السيرة". بل إن تعليقات بعض الصحفيين خلال فترة النصف الأول من القرن العشرين، كانت تشير - من قبيل التندر - بأن معلم المقهى وناديه، كانوا يسرون للشاعر (الراوى)، أن يطنب أو يوجز فى بعض وقائع السيرة، بحسب مزاج الزبائن وبحسب رواج حال الطلاب بالمقهى أثناء رواية الشاعر للسيرة.

وثمة شواهد كثيرة، تشير إلى أن "النص" قد تم إعداده بالقاهرة، كما أن معظم وقائع السيرة حدثت بالقاهرة تحديدا وأن أبطال السيرة هم من المصريين، مع اختلاف فى الطبقة الاجتماعية. ولعل أوائل الإشارات إلى هذه السيرة توجى بأن النص قد اكتمل خلال القرن السادس عشر الميلادى، مما يثير بعض التأمل، فى أن اكتمال النص الشعبى قد حدث بعد دوال دولة "الظاهر بيبرس" بكثير من قرن. وقد نميل إلى تفسير اكتمال النص واتساع نطاق تداوله، قد حدث بسبب انتهاء دولة سلاطين المماليك المصرية، وفقدان مصر لاستقلالها الوطنى بالغزو العثمانى لمصر (١٥١٧)، واعتبارها ولاية عثمانية تخضع مباشرة لهيمنة "الباب العالى" فى "أستنبول". ومن ثم ظهرت "سيرة الظاهر بيبرس"، تذكرا لأيام المجد والاستقلال الوطنى وتذكيرا بها، وتنشيطا فنيا للوعى الوطنى للمصريين بعد النكبات القومية التى حلت بهم.

وهذا النوع من الحنين إلى ماض أفضل، هو نوع من "النوستالجيا" الجماعية التى يعرفها حاليا "علم النفس الجماعى". والأمر وارد على المستوى الفردى أيضا، وبخاصة فى حالات الضعف الإنسانى كالعوز والمرض والشيخوخة.

ويلاحظ الدارس المدقق "للسيرة الظاهرية"، أنها لا تحفل - كغيرها من السير الشعبية العربية - بأى نزاعات قبلية أو عائلية أو ثارات بين متصارعين. بل إن السيرة الظاهرية، تتناقص بين جنباتها وفى ثنايا تفاصيلها، نهايات الصراع الصليبي وهزيمته الساحقة على أرض مصر (موقعة المنصورة الظاهرة)، والتي قادها آخر سلاطين الأيوبيين (السلطان الصالح "نجم الدين أيوب") وهو فى محفة مرض الموت، وبقيادة عدد من الأمراء من مماليكه قادة الحروب الشجعان والمتمرسين، وعلى رأسهم "بيبرس البندقدارى"، الذى كان يعده السلطان "الصالح الأيوبي" لخلافته، كما تشير السيرة إلى ذلك.

وتحفل بدايات السيرة، برسم صورة خاصة لما يمكن أن نسميه بلغتنا المعاصرة (أصداء السيرة الذاتية)، لأخر سلاطين الأيوبيين "الصالح نجم الدين أيوب"، باعتباره أستاذ السلطان المرشح للخلافة "بيبرس" خليفة "الصالح"، ومؤسس الدولة المملوكية فى مصر.

وتعرض السيرة لحياة "نجم الدين أيوب" كأحد أرباب الولاية، وتسبغ عليه الكثير من سمات الولاية والتعفف عن أموال الدولة، وكسب رزقه الضئيل من عمل يديه. كما تشير السيرة فى مراحلها الأولى إلى إنشغال هذا العاهل الولى، بأمر بالغ الأهمية فى تقديره، إذ هو يعرف أن دولة الأيوبيين هى فى نهايتها المحتومة، ولذلك فهو يرتب أمور خلافته على نحو يتسم بالرشد وبالحكمة وبالعدل. وقد استقر على مملوكه الأثير "بيبرس"، ليكون الخليفة الملائم، بيد أن حداثة عمر الخليفة المرشح وقلة خبراته (على الرغم من فروسيته البارعة فى ميدان الجهاد ضد المغيرين على مصر من التتار والصليبيين)، توجب على السلطان الأيوبي الراعى لعملية انتقال السلطة إلى خليفته "بيبرس"، أن يبحث للسلطان الجديد عن مستشار حكيم يراعاه ويخلص له النصيح ويرشد خطاه فى حكم مصر وبخاصة فى هذا المنعطف التاريخى الخطير.

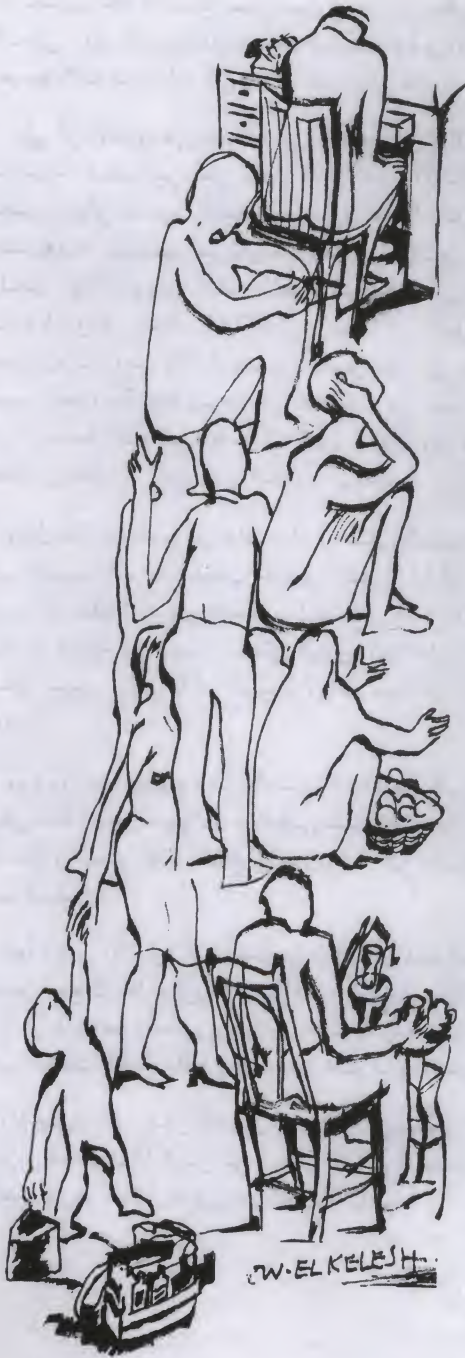
ويختار السلطان الأيوبي كبير عياق مصر المحروسة "الأسطى محمد عثمان بن (الحبلى)"، والذي طالما تزعم فتوات القاهرة وبخاصة فى خطوطها الشرقية وبالأخص فى خط "الجمالية" (والتي ما تزال قائمة حتى الآن). اختاره السلطان لشجاعته ولحكمته ولشهامته ولوفائه، ولالتفاف شعب المحروسة حوله، ليكون المستشار الأول والناصح الأول واليد اليمنى للمرشح للسلطنة "الأمير المملوكى (بيبرس)"، حتى لا يبرم أمرا من أمور الحكم إلا بعد التداول مع الأسطى محمد عثمان بن الحبلى واستشارته والعمل وفق رأيه ونصائحه.

وتشير وقائع السيرة الى إصرار "السلطان نجم الدين الأيوبي"، على اختيار "بن الحبلى" مستشارا أول للسلطان المرشح "بيبرس"، برغم خلافات بل وعداوات سابقة شجرت - فى الماضى - بين الرجلين، فالأسطى "محمد بن عثمان الحبلى" متمرد ثائر (ولربما يضمرب بعض الكراهية للأمراء المماليك)، و"الأمير المملوكى" بيبرس، لايرضى - مثل كافة المماليك - بغير الطاعة التامة والامتثال الكامل لحكم النظام من جانب الرعية. وأن "بن الحبلى"، طالما دوخ السلطة فى القاهرة (بحد تعبير السيرة).

وهنا تتجلى حكمة ورجاحة عقل السلطان الأيوبي، بأن يعمد الى أن يؤاخى بين الرجلين (الأمير المملوكى المرشح للسلطنة "بيبرس" وزعيم شعب القاهرة المحروسة الأسطى محمد عثمان بن (الحبلى))، بحيث لايرم السلطان الجديد أمرا كبيرا أو صغيرا من أمور السياسة والادارة والحكم (بلغه السيرة)، إلا بعد التشاور مع الزعيم الشعبى، الذى يعمل على بذل النصيح للسلطان ومولاته والوفاء له. ولكى يضفى السلطان الأيوبي (وهو يشعر بدنو أجله)، على هذا الاتفاق بين الرجلين مزيدا من الاحترام والضمانات، فان جلسة المؤاخاة هذه تشرف بحضور السيدة نفيسه، وهى من أبرز الكواكب الدرية فى العترة المشرفة، والتي يكن لها شعب مصر المحروسة حبا واحتراما وتقديرا لحدود لها. فهى نفيسة العلم، وكان يرجع الى علمها وتفقهها الإمام الشافعى، ذو العلم العميق والفقهاء النابه (وللناس - حتى الآن - اعتقاد عظيم فى كل من نفيسة العلم والإمام الشافعى، قدس الله تعالى روحيهما على مدى الزمان).

أضواء على "السيرة الشعبية للظاهر بيبرس":

أسلفنا فى متن هذه الدراسة الماثلة أن السيرة الظاهرية هى السيرة الشعبية العربية الوحيدة، والتي يميل كافة الباحثين والأكاديميين من ذوى العلاقة الى اعتبارها سيرة مصرية حميمية، سواء من حيث الوقائع وسير الأبطال ونحو ذلك. وقد رجحنا أن يكون قد اكتمل إعدادها فى أوائل أو أواسط القرن السادس عشر، كما رجحنا أيضا أن ذلك قد تم بعد أحداث الغزو العثمانى لمصر (١٥١٧)، كما ملنا الى أن هذه السيرة



الشعبية المصرية الصميمية ، كانت كنوع من النوستالجيا الوطنية لتاريخ استقلال وطني (حيث تشير كافة الاشارات الى أن حكم الممالك لمصر، كان يعد حكما وطنيا لدى جماهير الشعب المصري، فقد تربوا منذ طفولتهم الباكرة فى مصر، وهم المدافعون الحقيقيون والشجعان عن تراب الوطن المصرى ضد غزوات التتار والصليبيين . وكان المصريون يطلقون على أمراء الممالك لفظا له دلالاته فهم الأمراء المصرية ، إذا كانوا من الجناح العسكرى وهم الأغلبية ، وهم أولاد الناس " إن كانوا من المدنيين ، ومنهم - على سبيل المثال - المؤرخ المصرى الفذ ابن إياس الحنفى المصرى، صاحب التاريخ البالغ الشهرة ، والذي غطى جزءا من تاريخ السلاطين الممالك العظام فى مصر، وقد عاصر - بالإضافة - وقائع هزائمهم الفادحة على يد السلطان العثمانى سليم الأول (١٥١٧) وسجل الواقع الاجتماعى المصرى - آنذاك - بموضوعية وبنزاهة بارعة .

كما يلاحظ أيضا وبالإضافة الى أن "السيرة الظاهرية ، هى السيرة الشعبية العربية الوحيدة ، والتي تتناول مجتمعا حضاريا وهو مجتمع القاهرة مصر المحروسة على عكس كافة السير الشعبية العربية ، التي تغطى وقائع تتصل اتصالا مباشرا بمجتمعات البداوة والنزاعات القبلية والثارية بينهم .

ونحن نضيف - مزودين بكافة الشواهد - بأن السيرة الظاهرة هى السيرة الشعبية العربية الوحيدة ، التي تتصل - على نحو مباشر - بعالم السياسة ونظم الحكم والادارة فى واحدة من أهم الحواضر العربية فى ذلك التاريخ .

وقد لاحظ معظم الباحثين الثقاة . أن السيرة الظاهرية وإن عالجت موضوعات مباشرة فى الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر فى فترة مفصلية هامة ، وهى مرحلة انتقال الدولة من عهد الأيوبيين الى عهد السلاطين الممالك ، إلا أنها (أى السيرة) لا يمكن أن تعد تأريخا بالمعنى العلمى الدقيق ، فكثير من الوقائع التي أوردتها لم تحدث بيقين ! فعلى سبيل المثال ، فإن المؤاخاة التي تذكرها السيرة وتؤكد كإمبادرة حكيمة

من جانب الملك الصالح نجم الدين أيوب، بين بطلى السيرة : "الظاهر بيبرس" والأسطى محمد عثمان بن الحبلى"، وأن السيدة نفيسة قد شهدت توثيق الاتفاق بين الرجلين، تنفى هذه الواقعة تحديداً ، أن السيدة نفيسة كانت قد رحلت الى رحاب الله تعالى قبل هذه الواقعة المزعومة بنحو ستة قرون عدداً .

على أن الأغرب فى هذه السيرة الظاهرية والأكثر عبثية ، هو أن الشخصية المحورية الثانية الأساسية بالسيرة ، وهو كبير عُياق مصر المحروسة ، الأسطى محمد عثمان بن (الحبلى) (تأمل لفظ الحبلى فقد يعنى مصر الحبلى بتشوف تاريخى للمشاركة فى الحكم وفى السلطة، هذه الشخصية المحورية ، هى - بيقين وبكل الشواهد - شخصية غير تاريخية ومتوهمة بالكامل - هذه هى رؤية كافة الباحثين المدققين حول هذا الموضوع المذهل ، ولقد أجهدنا النفس لأعوام طويلة لتقصى كافة التاريخات والحواليات المصرية المعتمدة والتي تغطى فترة السيرة ، فلم نجد أية إشارة - باطلاق - لمثل هذه الشخصية المثيرة . ومن المؤكد أن السلطان الظاهر بيبرس، كان يدير دفة الحكم فى مصر بدون أى مستشار له سواء من الممالك الأمراء أو من رموز شعب مصر المحروسة. وقد رجعنا الى عدد كبير من وثائق المحكمة الشرعية بالقاهرة، فلم نجد لاسم "بن الحبلى" أى أثر ، مع ماتؤكد السيرة من أنه كبير العياق وأن موطنه الأصلي هو حى الجمالية بالقاهرة. كما رجعنا الى عدد من دفاتر الترابيع بدار المحفوظات بالقلعة ، دون أى جدوى أيضا .

ولعل هذا أن يقطع بأن واضح أو واضع السيرة الشهيرة إنما كانوا يشيرون - ولو فى حالة لاشعورية - إلى تشوف عارم لدى شعب مصرى لمشاركة ما فى الحكم والسلطة العليا. فالسيرة - فى هذا الصدد - إنما تعبر عن حلم شعوبى جماعى، استجاب له - وهذا غير حقيقى - آخر سلاطين الأيوبيين لترشيد دولا ب وآليات الحكم فى مصر ، حتى لاينفرد السلطان المملوكى القادم بالحكم المطلق بعيدا عن آمال وطموحات شعب مصر، والتي تؤكد السيرة أن آخر سلاطين الأيوبيين ، كان يكن لهذا الشعب إعجابا خاصا واحتراما موفورا!

ومع كل ما أوردناه ، فإن السيرة الظاهرية والتي تنتمى فى الغالب الى القرن السادس عشر الميلادى ، تبقى هذه السيرة شهادة حية على تشوف تاريخى عميق للشعب المصرى - آنذاك - للمشاركة الفعلية فى السلطة والحكم ، بدون تطلع بالضرورة - إلى تسنم السلطة العليا ، والاكتفاء بتراتب أقل درجة فى مراتب هذه السلطة .

كما تجدر الإشارة - بموضوعية - الى أن هذه السيرة وهى أدخل فى ميدان الأدبيات السياسية الشعبوية تتسم - مع كل ما يعترضها - بنوع من الرصانة ، إذا قورنت بمؤلفات معاصرة لهذه السيرة ، حظيت بانتشار بالغ فى المجتمع المصرى، ونخص مؤلفات ومصنفات الإمام الشعرانى (ومن حى باب الشعرية بالقاهرة)، وهى مؤلفات تنضج بأنواع غريبة من الخرافات والشطح ، مع كل مالها من شهرة وذيوع حتى الآن .

وإذا يكون ذلك ، فإن المخيال الشعبى فى مصر - برغم كل المظاهر الشكلية الفاشلة للتحديث - مايزال يمارس قوة ونفوذا كبيرا فى مجال تكريس لما نعانينه من حكم مطلق، نتمنى زواله قريبا، مصاحب لتشوف شعبى متردد للمشاركة وإن من الدرجة الثانية !